النقد الأدبي عند اللغويين والنحويين

كان العرب يتكلمون العربية سليقة، فلما انتشرت الفتوحات الإسلامية واختلط العرب بغيرهم من الأمم، وجدوهم يتكلمون العربية تعلمًا لا سليقة، ومن ثم بدأ التفكير في ضرورة إرساء أسس وقواعد للعربية، فظهرت مدرسة البصرة في النحو التي تحتفي بالقياس وتقدمه على الرواية، بينما كانت المدينة الكوفية التي ظهرت بعدها تحتفي بالرواية وتقدمها على القياس، وكان الإحتفاء بالرواية يتتبع عناية بالشواهد الشعرية وكان للنقد الأدبي أيضا نصيب من تلك العناية، ومن ثم وجد عند اللغويين نوع من النقد العلمي الذي يعتمد على التحليل والتعليل بدون عصبية أو هوى.

كان النحاة يتتبعون كلام العرب ليستنبطوا منه قواعد النحو، أو وجوه الإشتقاق، أو الأعاريض التي جاء الشعر عليها، وهذا الاستنباط يجرهم بالضرورة إلى نقد الشعر لا من حيث جماله الفني، بل من حيث مخالفته للأصول التي هداهم استقراؤهم إليها في إعراب أو وزن أو قافية، فأظهروا بعض ماوقع فيه شعراء الجاهلية والإسلام من الخطأ في الصياغة، من ذلك أن عيسى بن عمر الثقفي أخذ على النابغة الذبياني قوله:

فبتّ كأنّي ساورتني ضئيلة من الرُقش في أنيابها السم ناقع

والصواب أن يقول: ناقعا بالنصب على الحال. وكان عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي متتبعا أخطاء الفرزدق مكثرًا الرد عليه، من ذلك أنه عاب عليه قوله:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلّف

والصواب "مجلفا بالعطف" فشتمه الفرزدق وقال: "علي أن أقول وعليكم أن تحتجّوا". كذلك تكلم النحاة في الأوزان والقوافي فأبو عمرو بن العلاء يعرف الإقواء بأنه اختلاف الإعراب في القوافي، وحسبنا في هذا المقام أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو نحوي لغوي، واضع علم العروض ومؤسسه، وقد أخذ على الشاعر قوله:

إذا كنت في حاجة مرسلا فأرسل حكيمًا ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبًا ولاتعصه

وقال: هذا خطأ في بناء القوافي.

وكان من هؤلاء النحويين من له علم باللغة أيضا فاشتغل بجمعها وروايتها، وشرح غريبها، فضلا عن رواية الأشعار باعتبارها مادة اللغة، ومن ثم كان لهم علم واسع بالشعر يفوق علم النحويين الذين يقتصرون منه على رواية الشاهد. وقد افد هؤلاء النقد الأدبي من ناحيتين:

الأولى أنهم جمعوا كل ماقاله الأدباء قبلهم في الشعر والشعراء، والثانية أن لهم – آراء قيمة في النقد، وأحكامًا على الشعراء.

كان هؤلاء اللغويون يستحسنون أبياتا في معنا خاص، أو يستجيدون مطلع قصيدة، أو قصيدة كاملة، أو يوازنون بين شعر وشعر، فأبو عمرو بن العلاء يقول: أحسن شعر قيل في الصبر على النوائب قول دريد بن الصمة

يغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا، أو نغير على وتر

بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة فما ينقضي إلا ونحن على شطر

وكان – قصيدة المقب العبدي التي يقول فيها:

فإمَا أن تكون أخي بحقِّ فأَعرِفَ منكَ غثِّي من سَميني

وإلا فاطَّرحني واتخذني عدُوّاً أَتَّقيكَ وتتَّقيني

ويقول: لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه، وسئل محمد بن سلام الجمحي أي البيتين عنده أجود قول جرير:

أستم خير من ركاب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أم قول الأخطل:

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

فقال: بيت جرير أحلى وأيسر، وبيت الأخطل أجزل وأرزن.

وقد تعمقوا في فهم الشعر وتذوقه، وفي معرفة مميزات الشعراء تعمقا لم يهتد إليه أحد من قبل؛ عرفوا أنّ جريرا قوي الطبع صادق الشعور، وأن الأعشى يستعمل أنواعا كثيرة من الأوزان في شعره، وأن شعر النابغة الذبياني قوي الصياغة متماسك، وشعر امرىء القيس مليء بالمعاني التي لم يسبقه إليها أحد، وعرفوا ضروب الصياغة وأن منها ماهو سهل رقيق عند جرير، صعب ملتو عند الفرزدق، جزل عند الأخطل، وعرفوا ضروب المعاني وأنّ منها ماهو فاسد وماهو صائب حكيم، كما وقفوا على ما لكل

شاعر من خصائص ومميزات، وما--- من القول وما يطرق من الأغراض، وما ينظم فيه من الأعاريض وما — به من الألفاظ، وما يجنح إليه من الرقة أو الجزالة أو الحوشية، وعرفوا مزايا طول النفس في القصائد، وأثر ذلك في غزارة المعاني واستيفاء الكلام، والأمثلة على ذلك كثيرة غير معوزة نجتزىء منها بما قاله شيخ اللغويين أبو عمرو بن العلاء في ذي الرّمة: " إنما شعره نقط عروس تضمحل عمّا قليل، وأبعار ظباء لها مشمّ في أول شمها، ثم تعود إلى أرواح الأبعار". فهو يشبه شعر ذي الرمّة نقط العروس التي تذهب بالغسل، وبأبعار الظباء التي لها رائحة مقبولة من أثر النبت الطيب الذي تأكله، ثم لا تلبث أن تزول، يقد أن شعره حلو أول مانسمعه فإذا كررنا إنشاده ضعف، أي أنه غير خصب ولا قوي، ولا عميق الأثر في النفس.

كما أنهم وازنوا بين الشعراء، وقرروا أشعرهم في كل مصر، وانتهوا إلى أن امرأ القيس والنابغة وزهيرا والأعشى أشعر الجاهليين، وأنّ جريرا والفرزدق والأخطل أشعر الإسلاميين، بل إن منهم من حاول أن يوجد أوجه التشابه بين هؤلاء وهؤلاء، ومن ذلك ماخلص إليه أبو عمرو بن العلاء من أن جريرًا يشبه الأعشى، والفرزدق يشبه زهيرًا، والأخطل يشبه النابغة، وقد كان مستندهم في المفاضلة بين الشعراء يقوم على دعامتين:

1- كثرة انتاج الشاعر، وغزارة شعره، وتنوع أغراضه.

2- جودة هذا الشعر الغزير من حيث معانيه والصياغة.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه كان لبعض اللغويين دور سلبي عاد بالسوء على النقد الأدبي، ويتمثل في وضع الشعر ونحله، ولم يسلم من هذه الظاهرة حتى كبار اللغويين والنحويين منهم مثل أبي عمرو بن العلاء الذي يعترف أنه وضع على الأعشى قوله:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلاّ الشيب والصّلعا.

على أنّ أشهر الوضاعين اثنان أحدهما من البصرة وهو خلف الأحمر، والثاني من الكوفيين وهوحماد الرواية، وقد اشتهر الإثنان بالكذب والإنتحال والوضع وتأليف الأشعار ونسبتها إلى الجاهليين، ممّا أدى ببعض العلماء في اللغة والنقد إلى معالجة هذه الظاهرة فبحثّوا في السند والمتن مجارين علماء الحديث؟